

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزيزة

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

Scientific knowledge

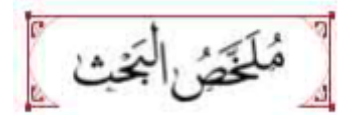
And the problem of applying the method in the humanities

علي بوزيزة*

كلية الآداب واللغات - جامعة عبد الرحمن بن خلدون - تيارت - الجزائر

bouazizali13@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2022 / 12 / 01	2022 / 11 / 15	2022 / 11 / 01



التفكير العلمي هو كل محاولة لتفسير الظواهر باستخدام منهج معين، أو كل نشاط عقلي ينصرف بشكل منظم إلى محاولة تفسير، وفهم موضوعات معينة. إن التفكير العلمي إنما يكون بمنهجه لا بموضوعه؛ فالموضوع العلمي قد يخرج عن نطاق العلم إذا نوقش بمنهج غير علمي، لذلك قيل: إنَّ العلمَ هو المنهجُ، ولمَّا كان العلمُ يتَّخِذُ مناهجَ تنادي بالحتمية التي تعني أنه إذا توفرت الشروط والأسباب، فإنها تحتم وقوع النتائج نفسها. فإلى أيِّ مدى ينطبق ذلك على المنهج العلمي في العلوم الإنسانية؟

الكلمات المفتاحية: التفكير الإنساني، المعرفة العلمية، المنهج، الظاهرة العلمية، الظاهرة الإنسانية.



Scientific thinking is any attempt to interpret phenomena using a particular approach, or any mental activity that goes systematically to trying to interpret and understand certain topics.

* علي بوزيزة: bouazizali13@gmail.com

Scientific thinking should be by its method and not by its subject, the scientific subject can go beyond science if discussed in an unscientific way. Therefore, it is said that: science is the method, and that science adopts methods leads to determinism, which means that if the conditions and the reasons are available, it is inevitable that the results will be the same. How does this apply to the scientific method in the humanities?

keywords: Human thinking, scientific knowledge, method, scientific phenomenon, human phenomenon.

مقدمة

لقد أضحت الحاجة إلى المعرفة والبحث العلمي اليوم ضرورة ملحة في ظلّ سباقٍ محمومٍ، وتنافسٍ شديدٍ بين دول العالم، خاصّةً المتطورة لاكتساب أكبر قدرٍ ممكنٍ من المعرفة، واكتشاف ما هو مجهولٌ في أسرع وقتٍ، وبأقل تكلفةٍ، واختراع ما هو مفيدٌ ومريحٌ سعياً لخدمة الإنسانية قاطبة، أو ركضاً للاستحواذ على مقود البشرية، والهيمنة على العالم لخلافة الأرض وتسخير ما فيها. ولعلّ هذا ما جعل الدول العظمى تنهفت على استقطاب أدمغة العالم الثالث، وتتنافس في إغوائها وإغرائها، سواء عن طريق التحفيز، أو عن طريق ما يسمى بالهجرة المنتقاة. وما كان لهذه الدول أن تبلغ مبلغها من العلم إلا بتقديسها للعلم، وتكريمها للعلماء، واهتمامها بالبحث العلمي والتنقيب والاختراع في كل المجالات. وتعدّ الجامعة باباً مفتوحاً للصراعين لمجال البحث العلمي تُسخر لها الدول نصيباً من ميزانيتها كلّ سنة. وتبذل بلادنا في هذا السبيل جهداً لا يستهان به في بناء المنشآت والمعاهد والجامعات، وتوفير المقاعد البيداغوجية للطلبة، وتكوين الأساتذة عن طريق المنح والتربصات الخارجية، وإنشاء المخابر وتنظيم الملتقيات. وإذا كانت الغاية من البحث هي التنقيب عن الحقيقة، فإن الحقيقة المطلقة في يد الله وحده. وإن قيمة الإنسان لا تكمن فيما يكتسبه من هذه الحقيقة، أو يدعي أنه يكتسبها، ولكن فيما يبذله من جهدٍ متواصلٍ وما يُعانيه ويكابده في بذل ذلك النشاط الفكري للمامستها على حد قول ليسانغ:¹

« La valeur de l'homme ne réside pas dans la vérité qu'il possède, ou qu'il croit posséder, mais dans la peine sincère qu'il assume en la cherchant. Car ce n'est pas la possession, mais la recherche de la vérité, qui accroît ses forces ; là seulement gît le progrès constant de sa perfection. La possession rend tranquille, paresseux, orgueilleux ; si Dieu tenait dans sa main droite toute la vérité, mais dans sa gauche, la seule quête, toujours agissante, de la vérité - dût-elle ne rapporter que l'erreur, chaque fois et toujours - et s'il me disait : « Choisis ! », je me jetterais humblement sur sa main gauche et je dirais : « Donne, Père ! Car, de toute façon, la pure vérité n'est que pour toi seul ».

معتمداً على مناهج موضوعية، وطرائق مختلفة لمعرفة الترابط بين الظواهر، واستخلاص فكرة صادقة عن جوهر أي موضوع يعكف على دراسته. وقد قيل: إنّ العلم هو المنهج، ولما كان العلم يتخذ مناهج تنادي بالحتمية التي تعني أنه إذا توفرت الشروط والأسباب تحتم وقوع النتائج، فالإي مدى ينطبق ذلك على المنهج العلمي في العلوم الإنسانية؟

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

1. تطور التفكير الإنساني

اهتم الإنسان منذ القدم بالبحث عن الله والتعرف عن الخالق، مدفوعاً في ذلك بشعور خفي، يسوقه سائق عنيف وإلحاح شديد من فطرة كامنة فيه، وظل الكائن الوحيد الذي يبحث عن حقيقة المعرفة ويسعى إلى الكشف عن الكمون القائم في عمق الطبيعة والكون. تلك الحقيقة الكبرى التي شغلت فيما بعد الفلاسفة هي: هل الله موجود وإذا وجد فما هي طبيعته؟²

« Au fond de toutes les inquiétudes de l'homme et toutes les spéculations des philosophes, il n'y a peut-être qu'un problème qui est le problème de Dieu. Dieu existe-t-il et s'il existe qu'elle est sa nature ».

لم يقنع الإنسان من الحياة بمظاهر أشكالها وألوانها كما تنقلها إليه حواسه أو كما يفعل بها شعوره، بل يتناولها بعقله، وينفذ إليها ببصيرته ليعرف حقيقة كل شيء. من أين جاء؟ وكيف صار؟ وإلام ينتهي؟ لا يدخر وسعاً من ذكاء أو جهد حتى يبلغ من ذلك ما يطمئن إليه عقله وتستريح به نفسه. ولذلك صار لكل إنسان تصور خاص لإلهه الذي يعبده والذي ينزل من نفسه المنزلة التي هداه إلهها عقله أو قلبه، وبالقدر الذي تكشف له من الحقيقة، وعلى الصورة التي تمثلت في خاطره، فتعددت الآلهة وتفرقت بالناس مذاهب الرأي فيها، فكان لكل أمة ربها، ولكل جماعة دينها، وفي كل ذلك كما قال ابن عربي إنما عبدوا الله وحده: « فالناس على قسمين: من الناس من يمشي على طريق يعرفها ويعرف غايتها فهي في حقه طريق مستقيم. ومن الناس من يمشي على طريق يجهلها ولا يعرف غايتها، وهي عين الطريق الأول التي عرفها الصنف الأول»³. وهذا ما صرح به ابن الفارض:⁴

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء بالإخبار في ألف حجة

فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم سواي، وإن لم يظهروا عقد نية

وقد عمل التفكير الخرافي على الحدّ من شغف الإنسان بالطبيعة وعطّلاه عن ملاحظاته، فتاه بين عالم الخيال والأوهام واستلذّ بالتفكير الميتافيزيقي الذي شغله بالعالم الآخر. فلم يحقق نهضته العلمية إلا عندما ثار على النماذج الخرافية والميتافيزيقية. وقد استغرق منه ذلك أمداً طويلاً تدرّجت فيه المعرفة العلمية من مجرد تلمس الحقيقة عبر الإدراك الحسي إلى معرفة المبادئ والقوانين التي تحكم الطبيعة، ومن صعوبة العد والحساب إلى ترويض الفكر لمعرفة المبادئ العقلية التي تعتمد المنطق ليشق طريقه كعلم من العلوم العقلية التي ترشد الإنسان نحو التفكير الصائب والصحيح غير المتناقض مع ذاته وتبعده عن الخطأ والزلل. وهكذا يكون التفكير الإنساني قد تقدم كثيراً في مضمار المعرفة، فتوصل أخيراً إلى المعرفة العلمية. فما هو العلم؟

2. المعرفة العلمية

المعنى اللغوي لفظ العلم: «يقال علم فلان الشيء أي عرف علامته وما يميزه»، إنما سعي علما لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس، وهو كالعلم المنصوب في الطريق. والعلم بهذا المعنى اللغوي هو المعنى الشائع في استعمال لفظ العلم باعتباره فعلاً إدراكياً. أما عن المعنى الاصطلاحي لفظ العلم فهو مجموعة من المعارف متصفة بالوحدة والتعميم.⁵

كان العلم عند القدماء مرادفا للمعرفة أي كان نوعها وسببها فكلمة علم تعني «بوجه عام المعرفة وإدراك الشيء على ما هو عليه. أما بوجه خاص فهو دراسة ذات موضوع محدد وطريقة ثابتة توصل إلى طائفة من المبادئ والقوانين، وينصب على القضايا والحقائق العامة المستمدة من الوقائع والجزئيات»⁶؛ فهو منهج يسعى للوصول إلى مجموعة مترابطة من الحقائق الثابتة المصنفة والقوانين العامة. والعلم ضربان: «نظري يحاول تفسير الظواهر وبيان القوانين التي تحكمها كالطبيعة والرياضة وعملي يرمي إلى تطبيق القوانين النظرية على الوقائع والحالات الجزئية»⁷.

يعتبر العلم مجموعة مترابطة من تصورات وآراء وأفكار، تنتج عن الملاحظة والتجربة. وهو ليس نتيجة جهد فرد واحد، بل نتيجة جهد متواصل ومتراكم، إنه حركة مستمرة نحو الاقتراب من الحقيقة، وهو وليد البحث العلمي، والبحث تنقيب مستمر عن المعرفة بطريقة علمية، إنه شعار الحياة المتجددة، التي تصنع الحضارة والرفاهية للإنسانية.

وقد قسم أرسطو العلوم قسمين: «نظرية وهي الطبيعية والرياضة وعملية وهي تدبير المنزل والأخلاق والسياسة. وقد أخذ المدرسون بهذا التقسيم، ثم أدخلت عليه تعديلات كثيرة في العصر الحديث انتهت إلى عدّة نظريات في إحصاء العلم»⁸؛ فالعلم يشمل كل معرفة منظمة، عقلية منطقية كانت أو حسية تجريبية إنه منهج للتفكير في الطبيعة القابلة للبحث بوسائل معينة بغية استخلاص "القوانين الكونية" وما يتبعها من جزئيات تفسر هذا الكون وتسخره للإرادة الإنسانية. إنه نوع من التفكير المنظم الواعي بأولويات الأشياء، والمتسم بالنزاهة والشمولية والدقة، والرغبة الجادة في الوصول إلى الحقيقة المجردة عن طريق العقل، الذي يمثل ملكة تركيب عليا قادرة على تجاوز الجزئي إلى الكلي، وطرح الأفكار المضادة، وصياغة القوانين العامة. وإن إطلاق لفظ العلم على مجموعة معينة من المعارف، أو على عدد محدد من المسائل يستلزم بالضرورة أن تكون هذه المعارف وتلك المسائل متصفة بخصائص ومميزات⁹.

3. خصائص المعرفة العلمية

يستخدم العلم العديد من الطرق والوسائل والتقنيات لفهم الطبيعة والتوصل إلى مجموعة العلاقات والقوانين التي تحكمها. فهو يبدأ بالملاحظة وينتهي إليها، وقد يلجأ العلم إلى وسائل غير مباشرة كالأجهزة التكنولوجية الحديثة المساعدة للحواس التي أنتجها هو نفسه. إنها عملية هادفة مقصودة ليست عشوائية ولا وليدة صدفة حادثة بل هي أساس ما يترتب من عمليات العلم.

قد لا تدرك الحواس أحيانا علاقات خفية في بعض الظواهر الطبيعية فتستشف من خلال القانون العلمي الذي يوضح العلة وكيفية تأثيرها في المعلول، فالسقوط الحر للأجسام مثلا قد اختزل في قانون بسيط عام.

إن المعرفة العلمية تفسر الظواهر الطبيعية بالظواهر الطبيعية. فهي لا ترجئها إلى علل غيبية كما كان سائدا في القديم، عندما جعل الإنسان لكل ما استعصى عليه فهمه إليها، إنها معرفة وضعية. كما تتميز بالموضوعية فهي مستقلة عن الميولات الشخصية للإنسان ومنافعه وأهوائه؛ فالتفكير العلمي يقف ضد ما

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

هو في الإنسان، ضد اعتقاداته وميولاته كما قال بَشَلار: "العلم يقرب الناس بعضهم من بعض، والأهواء والمصالح تفرقهم، لأن العلم يستخدم الأدلة العقلية والبراهين المنطقية المستقلة عن العوامل الشخصية والذاتية".

كما يقوم العلم على التنبؤ، وليس المقصود بذلك تنبؤ المنجمين والعرافين؛ فذاك في نظر العلم نوع من الخرافات والتزهات التي ظلت تواكب عقول الناس من قديم؛ فقد عرف أن بلاط الكثير من الملوك والقيصرة والأمراء كان يعتمد في تصريف أمور الدولة على العرافين والمنجمين، خاصة في أمور الحرب. وربما استمر هذا الإرث الثقيل ساريا بين الناس حتى اليوم¹⁰. وبحسب ما رواه مارتن جاردنر كان الرئيس رونالد ريغان يستشير المنجمين بانتظام قبل اتخاذ قراراته المهمة¹¹. إن العلم غير مواقف الإنسان من سلوك الإنسان وأحلّ بالتدرج الرؤية والعقل محلّ القسوة والتحامل والخرافة؛ فالتنبؤ عملية تهدف إلى التعرف على النتيجة المتوقعة إذا ما توافرت شروط معينة. وهو يختلف جذرياً عن التخمين، حيث يعتمد التنبؤ العلمي على قوانين ومبادئ ونظريات علمية موثوق فيها؛ فإذا كانت المعرفة العادية الساذجة لا تتجاوز حدود الحاضر، فإن المعرفة العلمية تطلع على الحوادث قبل وقوعها. قال أوغوست كونت: "بالعلم يكون التنبؤ وبالتنبؤ يكون العمل".

والتنبؤ يخول للإنسان إعداد العدة للمستقبل، كما أصبح العلم قادرا على التفسير والتعليل يطلعنا على كيفية حدوث الأشياء. إن علماء الفلك مثلا يستطيعون التنبؤ بأن اليوم الأرضي سيصير ست وثلاثين ساعة بعد خمسة آلاف مليون سنة.

القياس: يلجأ العالم إلى أحد أساليب تقنين عمليات العلم المختلفة وهو القياس، للتحقق من صدق الملاحظات؛ فالمعرفة العلمية تستخدم التعبير الرياضي؛ فلا علم إلا بالقياس كما قال أرسطو: "الأصوات والألوان لم تتحول إلى وقائع علمية إلا بعدما فسرت تفسيراً كمياً".

يرجع التفسير العلمي الظاهرة أو الحدث إلى أسبابها الحقيقية؛ أي ربط السبب بالنتيجة وذلك بإجراء التجربة والتي هي موقف اصطناعي يلجأ إليه العالم لجمع بيانات ومعلومات عن ظاهرة، أو للتأكد من صدق معلومة سبق التوصل إليها أو لاختبار صدق فرضية، أو التوصل إلى حقائق وقوانين جديدة، أو التحقق من صدقها. وأخيرا يجمع العلم هذه القوانين، ويوحد بينها ويضعها في مبتدئ عامة ونظريات شاملة.

لم يكتسب التفكير العلمي سماته المميزة، التي أتاحت له بلوغ نتائجه النظرية والتطبيقية الباهرة إلا بعد تطور طويل، وبعد التغلب على عقبات كثيرة، وخلال هذا التطور كان الناس يفكرون على أنحاء متباينة. يتصورون أنها كلها تهديهم إلى الحقيقة. ولكن كثير من أساليب التفكير اتضح خطأها فأسقطها العقل البشري خلال رحلته الطويلة، ولم تصمد في النهاية إلا تلك السمات التي تثبت أنها تساعد على العلو ببناء المعرفة وزيادة قدرة الإنسان على فهم نفسه والعالم المحيط به¹².

إنّ التفكير العلمي هو كل محاولة لتفسير الظواهر باستخدام منهج معين أو كل نشاط عقلي ينصرف بشكل منظم إلى محاولة تفسير وفهم موضوعات معينة. وعليه يمكن القول إن التفكير العلمي إنما يكون

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

بمنهجه ولا بموضوعه؛ فالموضوع العلمي قد يخرج عن نطاق العلم إذا نوقش بمنهج غير علمي، فكثيرا ما كان يلجأ الإنسان إلى تفسير بعض الظواهر والحوادث تفسيراً خرافياً ويجعلها إلى أسباب خفية، وهكذا يمكن القول بأن اصطباغ موضوعات معينة بالصبغة العلمية أو عدم اصطباغها يرجع إلى استخدام المنهج العلمي في بحثها أو عدم استخدامه¹³.

4. المنهج العلمي *La méthode scientifique*

هو طريقة موضوعية يتبعها الباحث لدراسة ظاهرة من الظواهر، بقصد تشخيصها، وتحديد أبعادها، ومعرفة أسبابها، وطرق علاجها، والوصول إلى نتائج عامة يمكن تطبيقها. إنه «خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها»¹⁴؛ فالمنهج فن تنظيم الأفكار، سواء للكشف عن حقيقة غير معلومة، أو لإثبات حقيقة نعرفها.

وبدون المنهج، يصبح البحث مجرد حصر وتجميع معارف؛ فالبحث العلمي يقوم على منهج منظم للتفكير العقلي لعلاج مشكلة، وتدين الحضارة الغربية الراهنة بما وصلت إليه لاستخدامها منهج البحث العلمي، كوسيلة للتفكير.

وتختلف مناهج البحث باختلاف موضوع البحث نفسه، ويمكن تحديد المناهج الأساسية في البحث

العلمي في:

المنهج التجريبي: لدراسة الظاهرة

المنهج الوصفي: التحليلي لوصف الظاهرة

المنهج التاريخي: لتتبع الظاهرة

المنهج المتكامل: في البحوث التطبيقية للدراسة والتطبيق.

وأيا كان المنهج البحثي المستخدم، فإنه يتم وفق الخطوات الأساسية وهي: تحديد المشكلة، وجمع المعلومات، وفرض الفروض، واختبار صحة الفروض، وتعميم النتائج.

5. إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية

يشهد العالم اليوم تفجراً معرفياً غير مسبوق ويبدو على أعتاب مرحلة جديدة من التقدم العلمي، يعلو فيها دور العلوم الآلية أي: علم المنطق ومناهج البحث وعلوم المعلوماتية والكمبيوتر. وتلوح في الأفق ثورة تنتزع العرش من الفيزياء لتعتليه علوم الوراثة والبيولوجيا الجزيئية لتتأزر مع العلوم الآلية في منظومة مستجدة تماماً. تستغل الامكانيات المعرفية للتوكيد والتشفير والقوة التوليدية للأنساق الاستبطانية... لكن يظل التجريب سلاحاً أولياً للبحث العلمي لا مندوحة عن حسن استغلاله وتشغيله وشحذه¹⁵.

وفي كل هذا يزداد إلحاح دور العلوم الإنسانية في العقل وفي الواقع. ولا تزال سيطرة العقل العلمي التجريبي على الظواهر الطبيعية والحيوية تفوق كثيراً سيطرته على الظواهر الإنسانية. أجل قطعت بعض العلوم الإنسانية خطوات واسعة في طرق اصطناع المنهج العلمي، وعلى مدار القرن العشرين أحرزت إنجازات

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

متوالية. لكن لا تزال الحاجة ملحة إلى مزيد من سيطرة العقل العلمي على الظواهر الإنسانية، وإلى دفع الطاقة التقدمية للعلوم الإنسانية¹⁶.

لكن، لم يتكون بعد نسق متكامل من القوانين التفسيرية في أي مجال من مجالات العلوم الإنسانية، يماثل من حيث القوة المنطقية أنساق القوانين التفسيرية في أقل فروع العلوم الطبيعية حظوة من التقدم. وهذا التخلف النسبي هو أساس ما يعرف بمشكلة العلوم الإنسانية، إنها إشكالية ملحة، تؤرق باحثيها والمهتمين بشأنها أجمعين. ويندر أن يتعرض عمل لفلسفة العلوم الإنسانية ومناهجها، ولا يشير إلى تخلفها النسبي عن العلوم الطبيعية، حتى قيل: «إن وجود علوم طبيعية على أساس منطقي مقنن ومنهجي راسخ، مثَّل بالنسبة لباحثي العلوم الإنسانية التحدي الذي ينبغي عليهم مواجهته للوصول بعلومهم إلى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية¹⁷». وقد حصر دلتاي w.Dilthey هذا العجز في مشكلتين: «الأولى أن العلوم الإنسانية ما زال يعوزها تصور واضح، ومتفق عليه عن أهدافها ومناهجها المشتركة والعلاقات بينها، إذا ما قورنت بما هو سائد في العلوم الطبيعية. والمشكلة الثانية هي أن العلوم الطبيعية تزداد منزلتها ومكانتها نموا واطرادا بحيث تَرْسَخُ في الرأي العام مثلا أعلى للمعرفة لا يتلاءم مع التقدم في العلوم الإنسانية¹⁸.

وتواجه مناهج البحث في العلوم الإنسانية جملة من التحديات، وعددا من التساؤلات، أصبح التوقف عندها ضرورة ملحة، تتطلب من العلماء والباحثين بذل الجهد في التنقيب والنقد والمراجعة، سواء فيما تعلق بقدرة تلك المناهج - بمفاهيمها وقوانينها - على الاستجابة لمتطلبات المعرفة الحديثة، أو بالتفاعل مع تحولات الواقع وتعقيداته، ومن ثم، إعادة النظر في قضايا المنهج، والعمل على رَأب الصدع الحاصل بين البحث في العلوم الإنسانية، وبين نمط تفكير الباحث في هذا الميدان والواقع الاجتماعي والمعرفي الذي يعيش في كنفه.

لقد عرف حقل مناهج البحث في العلوم الإنسانية عددا في المناهج، وتنوعا في التقنيات والوسائل والأساليب، مما صعب على الباحثين مسألة الاختيار والمفاضلة، ووضعهم في مواجهة مباشرة مع ثنائية التقليد والتجديد، ومع ذلك لا يمكن إنكار ما يبذله العلماء اليوم من جهود في سبيل مواكبة الواقع المعاصر، ورصد المبررات الموضوعية في تفضيل منهج على آخر بعيدا عن الارتجالية والتقليد، مع إدراكها لأهمية المراجعة والنقد من أجل تحديد مواطن الصواب والخطأ، وبذل الوسع لأجل تطوير مناهجها حتى تكون قادرة على مواكبة الواقع والإسهام في حل قضاياها وتقديم رؤية موضوعية له.

يقرر زكي نجيب محمود في معرض نقاشه لصعوبة البحث في الدراسات الإنسانية:

«إن العلوم الإنسانية لم تصب من التقدم ومن الدقة نصيبا يعادل النصيب الذي ظفرت به الفيزياء مثلا، فأغرى هذا التأخر في العلوم الإنسانية فريقا من الناس أن يترددوا في جعلها تشارك العلوم الطبيعية في منهج واحد، وان يميلوا بالقول إلى أنها تحتاج إلى طرق خاصة بها، والذي نراه هو أن مادة العلاقات الإنسانية إذا أريد لها أن تكون علما، فلا مندوحة لها عن السير في نفس الطريق المنطقي الذي تسير فيه بقية العلوم الطبيعية، وليس في مادة العلاقات الإنسانية ما يتنافى مع استيفاء الشروط المنطقية الضرورية بكل بحث

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

علمي، فالفرق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية هو فرق في تعقد التفصيلات وكثرتها، مما يجعل مواقفها أعسر تناولا من المواقف الطبيعية الأخرى، لكن ذلك يجعل تطبيق المنهج على العلوم الإنسانية أكثر صعوبة، ولا يجعله من الناحية المنطقية مستحيلا¹⁹. لقد قدمت العلوم التجريبية نموذجا باهرا للعلمية سواء من حيث دقة المناهج والنتائج أو نجاعتها لما وفرته من قدرة على التحكم في الظواهر الطبيعية. وهكذا سيكون وجود العلوم الإنسانية موسوما منذ البداية بالتوتر بين قطبين، موجودين أصلا في الاسم نفسه (علوم، إنسانية).

تحيل كلمة علوم بشكل لا مفر منه على العلوم التجريبية التي تمثل النموذج المثالي للعلمية. ويحيل نعت إنسانية إلى الفلسفة من حيث أنها تتخذ الإنسان كموضوع لها؛ فالعلوم طبيعية: موضوعها طائفة محددة من الظواهر الطبيعية ومنهجها دقيق يعتمد على عزل الظواهر وتكرار التجارب والتعميم والتنبؤ؛ إذ يقوم المنهج التجريبي فيها على إجراء التجربة العلمية التي يتم فيها اختيار عامل متغير لمعرفة أثره، قبل تعميم استخدامه. وتتم التجربة وفق شروط معينة يتحكم فيها ولسلامتها تثبت العوامل الأخرى التي بالتجربة حتى يمكن معرفة أثر العامل المتغير وقياس أثره، واستخلاص النتائج والوصول إلى حلول قابلة للتعميم. وتعتبر هذه الطريقة من الطرق البحثية الهامة للكشف عن الحقائق²⁰.

والفلسفة: موضوعها الإنسان ومنهجها تأملي يعتمد كثيرا على التجربة الشخصية الذاتية للفيلسوف. والواقع أن العلم والفلسفة قد كانا في العصور القديمة والعصور الوسطى جزءا من سلسلة فكرية واحدة، ولم يكن أحدهما يميز عن الآخر: «كان أحد طرفي هذه السلسلة يمس سطح الأرض حيث المشاهدات التي يمكن معرفتها مباشرة. وكانت السلسلة تمتد لترتبط بين هذه المشاهدات وبين الطرف الآخر للسلسلة (أو القواعد) الجلييلة»²¹.

بينما العلوم الإنسانية التي تختص بدراسة تصرفات الناس وسلوكهم أفرادا كانوا أو جماعات، فهي علوم تبحث في كل ما يتصل بالإنسان وتقابل العلوم الطبيعية²². تدرس كل واحدة منها طائفة محددة من الظواهر الإنسانية. ظواهر فريدة غير قابلة للتكرار وما يستخلص من ظاهرة واحدة يصعب تعميمه لندرة الظواهر المماثلة. إنها ظواهر معقدة متعددة ومتداخلة الأبعاد (اجتماعي، وثقافي، ونفسي، وتاريخي، واقتصادي) يصعب عزلها بيسر أو تعيين دور كل منها في تحديد الظاهرة؛ فالعلوم الإنسانية أشد تعقيدا من العلوم التجريبية في نظر جان بياجيه: «إن وضعية علوم الإنسان أشد تعقيدا لكون الذات التي تلاحظ تجرب على نفسها أو على الذوات المماثلة لها وقد يجعلها تغير مصدر الظواهر التي تتم ملاحظتها من جهة، كما يمكن أن تكون الذات من جهة أخرى مصدر تغيرات في مجرى هذه الظواهر بل حتى في طبيعتها»²³.

لقد أحصى عبد الوهاب الميسري عددا من الاختلافات والفرق بين الظاهرتين الطبيعية والإنسانية

منها²⁴:

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

- يسهل تحديد وحصر العلة أو العلل التي تكون وراء الظواهر الطبيعية في حين يصعب تحديد وحصر كل أسباب الظاهرة الإنسانية؛ فقد يصل الدارس إلى معرفة بعض الأسباب لكن دون أن يكمن من الوقوف على كل الأسباب، لأنها متعددة ومتداخلة.
- تتميز الظاهرة الطبيعية بغياب المكون الشخصي أو الثقافي أو التراثي عنها؛ فهي بلا شخصية ولا ثقافة وتراث، كما أنها مجردة من الزمان والمكان مثل تجردها من الوعي والذاكرة... وبالمقابل، نجد هذه المكونات الشخصية والثقافية والتراثية مكونات أساسية في بنية الظاهرة الإنسانية، هذا مع حضور الوعي والإرادة الحرة والشعور والذاكرة... في الظاهرة الإنسانية.
- دراسة الظواهر الطبيعية تقود إلى صياغة قوانين عامة يمكن التأكد من وجودها، وصحتها بالرجوع إلى الواقع. ولما كان الواقع الطبيعي بطيء التغيير، فإن هذا القانون يمكن أن يكتسب مشروعيته عبر الزمان والمكان. أما دراسة الظواهر الإنسانية، فتوصلنا إلى تعميمات تقريبية، قد تثبت وقد لا تثبت إن حاولنا تطبيقها على مواقف إنسانية جديدة. لأننا سرعان ما سنكتشف أن هذه المواقف الجديدة تحتوي على عناصر ومكونات خاصة لم نصادفها في المواقف السابقة؛ إذ من غير الممكن أن يحدث في المجتمع ظرفان متعادلان ومتكافئان تماما.
- كما تختلف وقائع العلوم الطبيعية عن وقائع العلوم الإنسانية في كون الأولى يمكن إدراكها عن طريق الحواس لأنها أحداث فيزيقية، أما الثانية فلا يمكن إدراكها عن طريق الحواس، لأنها ذاتية، وتختلف من فرد إلى آخر؛ فهي تتمثل في المشاعر والأفكار والنيات... ولذلك، فهي وقائع تتصف بجديتها وبعدم قابليتها للتكرار. ولعل السعي الحثيث لعلماء الإنسانية من أجل تعريف موضوع علمهم، وتحديد الوعي، وابتكار تقنيات لتحقيق القطيعة مع المعرفة العفوية لدليل على خصوصية الموضوع، وما طرحه موضعه من عوائق؛ فالظاهرة الإنسانية أكثر تعقيدا نظرا لتداخل الذات والموضوع، فالذات الملاحظة بقدر ما تلاحظ غيرها وتجرب على غيرها، فإنها، في الوقت نفسه، تلاحظ غيرها وتجرب على ذاتها؛ فالدارس والمدرس معا هو الإنسان.
- يمكن أن نستنتج بعض الصعوبات التي تواجه البحث في العلوم الإنسانية²⁵:
- كثرة الألفاظ الكيفية الغامضة.
- الركون إلى الأحكام القيمية.
- تعقد المواقف الإنسانية الناتج عن تداخل كثرة من المؤثرات والمتغيرات التي يصعب ضبطها أو التحكم فيها.
- صعوبة إجراء التجارب الراجعة بدورها إلى أحكام قيمية تؤكد على منزلة الإنسان بوصفه كائنا مدركا وعلى وجوب الكف عن التعامل معه بوصفه آلة أو مجرد كائن كسائر الكائنات.
- غياب التماثل بين الأفراد والجماعات. الأمر الذي يتعذر معه الوصول إلى فروض كلية، وما شابه ذلك.
- إنّ هذه الصعوبات لا تحوّل بأي شكل دون انتهاج تلك العلوم المنهج العلمي. إنّ التأكيد على استحالة تطبيق المنهج في تلك العلوم ناتج عن إغفال صورية قواعد المنهج العلمي وعن إساءة لفهم فكرته.

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

إنّ كون المنهج علميا يعني أنه يعد أنجع الوسائل لتحقيق مقاصد العلم في أي مجال من مجالاته. ولذا، فإن أمر علمية الدراسات الإنسانية ليس رهنا بالنجاح في حل الصعوبات الناتجة عن طبيعة مواضيع تلك الدراسات، بل وقف على تحديد مقاصد خاصة بتلك الدراسات تكفل الوسائل المتاحة إمكان تحقيقها دون إغفال لوجوب أن تندرج تلك المقاصد في سمت مشروع احتمال إنجاز غايات العلم²⁶.

ليس المقصود بكلمة العلم، هاهنا، معناه المعاصر في العلوم الدقيقة فحسب، وإنما الغرض مفهومه العام الذي يشمل كل معرفة منظمة، عقلية منطقية كانت أو حسية تجريبية. فالعلم في معناه اللغوي إنما سعي علما لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس، وهو كالعلم المنصوب في الطريق، لأن العلوم لا تختلف بتنوع الموضوعات بل بكيفية تناول أي شيء من المسألة الكلية من زاوية محددة.

لقد حاول ألكسندر دوما Alexandre Dumas أن يدفع بالدراسات الإنسانية إلى العلمية عندما رأى أنّه مادامت القوانين هي الشكل الأمثل للتنظيم في المجال العلمي. وبما أنّ الفلاسفة يقرّون بوجود الجماليات الأدبية، فإنّه يمكن أن يدخل مفهوم القانون في مجال التداول الأدبي والذي من شأنه أن يدحض كلّ ما هو انطباعي ذاتي في تفسير الظاهرة الأدبية²⁷.

يحاول بعض علماء الإنسانيات استلهام مناهج العلوم الطبيعية التي أثبتت فعاليتها، بينما يرافع آخرون من أجل ابتكار منهج أصيل بدعوى عدم وجود معيار أو نموذج وحيد للعلمية؛ فهذه الاشكالات الميتودولوجية التي تعترض العلوم الإنسانية نابعة أساسا من خصوصية الموضوع وهو الظاهرة الإنسانية؛ فتعارض الآداب والعلوم، مثلا، هو، في الصميم، تعارض الذاتية البشرية مع موضوعية الطبيعة.

الهوامش

¹- Tzvetan Todorov : poétique de prose, édition du Seuil, 1971,1978, p 7.

²- Régis, Jolivet : le Dieu de philosophes et des savants, je sais, je crois, édité par Fayard, 1956, p 7.

³- ابن عربي، (الشيخ الأكبر محي الدين محمد بن علي): فصوص الحكم، تحقيق ودراسة وتعليق، الدكتور أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1946م.

⁴- عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى 1993 م، ص 97.

⁵- ينظر: محمد تركي: ما الفلسفة، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى: 2006م ص 138.

⁶- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، 1983م، ص 123.

⁷- المصدر نفسه، ص 124.

⁸- المصدر نفسه، ص ن.

⁹- ينظر: محمد تركي: ما الفلسفة، ص 139.

¹⁰- ينظر: عبد المحسن صالح: التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، عالم المعرفة، ص 11.

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

- 11- ماكس بيروتز: ضرورة العلم: دراسات في العلم والعلماء، ترجمة: وائل أتاسي، بسام معصراني، مراجعة: عدنان الحموي: عالم المعرفة، ص 11.
- 12 - ينظر: فؤاد زكريا: التفكير العلمي عالم المعرفة، يناير 1978م، ص 15.
- 13 - ينظر: محمد تركي: ما الفلسفة، ص 141، 142.
- 14 - ينظر: مجمع اللغة: المعجم الفلسفي، ص 195.
- 15 - ينظر: منى طريف الخولي: مشكلة العلوم الإنسانية (تقنيها وإمكانية حلها)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص 07.
- 16 - ينظر: المرجع نفسه، ص ن.
- 17 - علا أنور مصطفى: التفسير في العلوم الاجتماعية، ص 41. عن منى طريف الخولي، ص 52.
- 18 - صلاح قنصوة: الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، سنة 1980م، ص 17.
- 19 - زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م، ص 303.
- 20 - ينظر: محمد الصاوي محمد مبارك: البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، طبعة أولى 1992م، ص 27.
- 21 - فيليب فرانك: فلسفة العلم، الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 1983م، ص 30، نقلا عن: نجيب الحصادي: ليس بالعقل وحده، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص 42.
- 22 - ينظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، ص 127.
- 23 - Jean Piaget, Epistémologie des sciences de l'homme, Gallimard, Idé 1970, p 47.
- 24 - ينظر: عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، 2002م، ص 42-46.
- 25 - ينظر: نجيب الحصادي: نهج المنهج، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، د ط، د ت، ص 138.
- 26 - زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، ص 138، 139.
- 27 - ينظر: أليكسندر ديميا: مبادئ علم الأدب المقارن ترجمة محمد يونس، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، سنة 1987م، ص 9.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

- 1- أليكسندر ديميا: مبادئ علم الأدب المقارن ترجمة محمد يونس، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، سنة 1987م.
- 2- ابن عربي، (الشيخ الأكبر محي الدين محمد بن علي): فصوص الحكم، تحقيق ودراسة وتعليق، الدكتور أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1946م.
- 3- زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م.
- 4- صلاح قنصوة: الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، سنة 1980م.
- 5- عبد المحسن صالح: التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، عالم المعرفة.
- 6- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، 2002م.
- 7- عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى 1993 م.
- 8- علا أنور مصطفى: التفسير في العلوم الاجتماعية.
- 9- فؤاد زكريا: التفكير العلمي عالم المعرفة، يناير 1978م.
- 10- فيليب فرانك: فلسفة العلم، الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 1983م.
- 11- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، 1983م.
- 12- ماكس بيروتز: ضرورة العلم: دراسات في العلم والعلماء، ترجمة: وائل أتاسي، بسام معصراني، مراجعة: عدنان الحموي: عالم المعرفة.

المعرفة العلمية وإشكالية تطبيق المنهج في العلوم الإنسانية

علي بوزينة

- 13- محمد تريكي: ما الفلسفة، دارالوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2006م.
- 14- محمد الصاوي محمد مبارك: البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، طبعة أولى 1992م.
- 15- منى ظريف الخولي: مشكلة العلوم الإنسانية (تقنيها وإمكانية حلها)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م.
- 16- نجيب الحصادي: ليس بالعقل وحده، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
- 17- نجيب الحصادي: نهج المنهج، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، د ط، د ت.

المراجع الأجنبية

- 1- Jean Piaget, Epistémologie des sciences de l'homme, Paris, Gallimard, Idées 1970.
- 2- Régis, Jolivet : le Dieu de philosophes et des savants, je sais, je crois, édité par Fayard, 1956.
- 3- Tzvetan Todorov : poétique de prose, édition du Seuil, 1971,1978.